الحرية بوصفها قيدًا

محاولة في فهم عبارة "كونوا أحرارًا في دنياكم"

يوسف محمد المحميد

حين يُكتبُ لعبارةٍ لغويةٍ أن تتحوَّل لشعارٍ تهتف به الجماهير، ويتغنَّى به الأدباء، ويغوص في تفسيره المفكرون، فإن تلك العبارةَ تضمن لنفسها البقاء، وتُصانُ من مصير كثيرٍ من كلامنا الضائع في الهواء، وتغدو قادرةً على تجاوز الظروف التي قيلت فيها، وبذلك التجاوز تكون قابلةً لتوليد المعاني المنسجمة مع عقول المؤمنين الجدد بها في كل عصر، وقد يجوز لقائلٍ أن يقول: إنَّ العبارةَ اللغويةَ تَستمدُّ حيويَّتَها وخلودَها بتحوُّلها إلى شعار، لكنْ علينا أن لا نتسرَّعَ في وصف ذلك البقاءِ بالحياة، لأنَّ فقدان الروح مع بقاءِ الجسم عاملًا لا يحوِّل ذلك الجسمَ إلى كائنٍ حيٍّ، بل إنه سيصير آلةً عاملةً شأنُها أنْ تؤدِّيَ وظيفةً تؤثِّر في الواقع الخارجيّ من دون أن تعيَ أو تقصد.

وبما أن الروحَ من أمر ربِّها، فإنَّ روحَ الكلام من أمرِ صاحبِه، أعني المتكلِّمَ الذي يبثُّ الروح التي نسميها "المعنى" في الحروف الماديّة والأصوات، فالمعنى ليس سوى ما قصده المتكلِّم بكلامه، لذا فإن إقصاءَ المتكلِّم من معادلات فهم النصوص، وتسليطَ أدوات الفهم عليها بمعزلٍ عن الظروف التي دفعت المتكلِّم إلى الكلام، يؤدّي إلى التعامل مع جثةٍ من الحروف أو الأصوات تأبى أن تُفصح بمكنوناتها، أو أن تُصَرِّح بقصد قائلها، وهذا ما يحدث في كثيرٍ من العبارات التي اتُّخِذَت شعارًا بعد قطفها من سياقها، وزرعها قسرًا في أرضٍ غير أرضها، ومن تلك العبارات المرفوعة شعارًا قولُ الإمام الحسين بن علي ﷺ لجنود الجيش الذي جاء لقتله:

"كُونُوا أَحْرَارًا فِي دُنْيَاكُم"

فقد أضحت هذه العبارة شعارًا تُرَدِّده الحناجر، وتُزَانُ به الرايات، وتُكَدُّ في تحليله الأذهان، لما فيه من ذكر للحرية، تلك القيمة الفلسفية والسياسية التي حظيت باهتمام عظيم في العالم الإسلامي منذ بدايات القرن العشرين لعوامل ترتبط بتجارب التواصل مع الفكر الغربي من جهة، ومساعي التحرر من المستعمر الغربي من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى علاقة الشعوب المسلمة بالمستبدين من أبنائها الذين حكموها بالحديد والنار، وحين يُرفع هذا الشعار تستحضر الأذهانُ البعدَ السياسيَّ لمفهوم الحرية، فترتسم صورة الحسين المناضل السياسي في سبيلها، ومع أني لا أشك في أن الحرية السياسية مبدأٌ أساسٌ في حركة الإمام الحسين، وأنَّها مطلبٌ رئيسٌ في الإصلاح الذي خرج في سبيله، إلا أني أرى أن من الخطأ الجسيم تحويل عبارة "كُونُوا أَحْرَارًا فِي دِنْيَاكُمْ" إلى شعار يُرفع لدعم المفهوم الحديث للحرية، لا لاعتراضي على المفهوم نفسه، فأنا من معتنقيه، وممن ينزهون عقولهم ونفوسهم عن رفض الحرية السياسية التي هي ضرورةٌ لإقامة حياةٍ سياسيةٍ إنسانية قابلةٍ للإصلاح والتطوّر والتكامل، وإنما تأتي هذه القراءة من منطلق غيرتي على ملكة فهم النصوص اللغوية، وخوفي من التعامل مع النصوص تعاملًا يسلبها روحها ليُحِلَّ فيها روحًا أجنبيةً أخرى، فتغدو النصوص تبعًا لأهواء القارئ، أو بمعنى آخر، تصبح النصوص أداةً للوصول لمآرب القارئ لا زنادًا يفجر معارفه، أو وقودًا يشعل عقله.

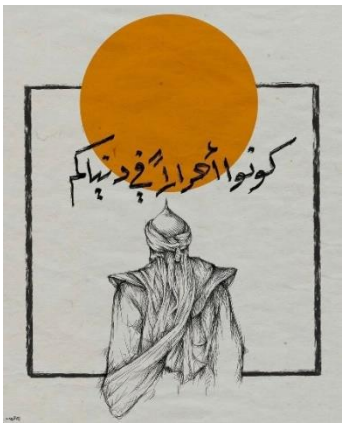

ما معنى الحرية في عبارة "كُونُوا أَحْرَارًا فِي دِنْيَاكُمْ"؟

ليس من السهل الركون إلى ما يتبادر للذهن للوهلة الأولى عند التعامل مع هذه العبارة، إذ لا بد من استعادة السياق الخاص الذي قيلت فيه العبارة، لنعرف متى قالها الحسين؟ أكان ذلك في مقام الاحتجاج على أعدائه قبل اندلاع المعركة أم كان ردة فعلٍ على موقفٍ معيَّنٍ؟ وما ردةُ فعلِ مَن وُجِّهَت إليهم العبارة؟ لأن ردة الفعل تكشف عن فهم المتلقي الأول للعبارة، وهذا يقدِّمُ معلوماتٍ ذات أهمية في تحليلها وفهمها، وما المقصود بأسلوب الأمر الذي جاءت العبارة في صورته؟ أهو أمرٌ حقيقيٌّ

أم أمرٌ خرج عن حقيقته لأداء غرضٍ بلاغيٍّ من الأغراض التي يفصِّلُها علماء البلاغة؟ لأن تحديد ذلك يساعد في الاقتراب من قصد الحسين حين نطق بها.

ثم إنَّ علينا بعد ذلك أن نرجع إلى السياق الثقافي الذي يُعدُّ البيئةَ التي تُسْتَمَدُ منها دلالات الألفاظ، فالتطور الدلالي للكلمات يمنع نسبة المعنى المتطور إلى حقبة سابقة كانت فيها اللفظة تُستخدم في غير المعنى اللّاحق، وهذا يستدعي النظر في دلالات اللفظة في زمن النطق بها، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلى السياق الثقافي بما يتضمنه من نصوصٍ تكشف عن الدلالات المحتملة للألفاظ، والحديث هنا عن لفظة "الحرية" واستخدامات العرب لها في الجاهلية والقرن الهجري الأول، لأن هذه الفترة تمثِّل البيئة الثقافية التي استمدَّ منها أطراف الحوار (الحسين والشِّمِر) دلالات الألفاظ التي دارت بينهم، فهل استخدم العرب لفظة "الحريَّة" بمعانيها السياسية أو الفلسفية المتداولة في عصرنا الذي اتخذ بعض أبنائه كلمة الحسين شعارًا؟ فإذا أجبنا عن ذلك ننتقل لنجمع نتائج تحليل السياقَين، الخاص والثقافي، حتى نتمكن من استبعاد بعض الدلالات المحتملة ونُبقي الدلالات الأخرى ثم نرجّح بينها لنكشف النقاب عن وجه المعنى الذي قصده الحسين في كلمته.

تحليل السياق الخاص للعبارة:

لقد ذكر الخبرَ جملةٌ من المؤرخين منهم ابن أعثم الكوفي في الفتوح، والأصفهاني في مقاتل الطالبيين، والموفق الخوارزمي في مقتل الحسين، وابن الأثير في تاريخه، وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول، والسيد ابن طاووس في اللهوف، وكلهم مجمعون على عناصر الخبر من حيث الوقت الذي

حدث فيه الحدث، وقيلت فيه العبارة، وأطراف الخطاب وردّات فعلهم، وإن اختلفت بعض الألفاظ فيه اختلافًا طفيفًا لا يمس بجوهر العبارة محل البحث، ونورد فيما يلي رواية ابن أعثم الكوفي[1]:

"ثُمَّ إِنَّهُ [يعني الحسين] دَعَا إِلى البِرَازِ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ كُلَّ مَنْ خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ عُيُونِ الرِّجَالِ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، قال: وَتَقَدَّمَ الشِّمِرُ بْنُ ذِي الجَوْشَنِ -لَعَنَهُ اللهُ- فِي قَبِيلَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَاتَلَهُمُ الحُسَيْنُ بِأَجْمَعِهِمْ، وَقَاتَلُوهُ حَتَّى حَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْلِهِ، قَالَ: فَصَاحَ بِهِمُ الحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَيْحَكُمْ يَا شِيعَةَ آلِ أَبِي سُفْيَانَ! إِنْ لَمْ يَكُنْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخَافُونَ المَعَادَ؛ فَكُونُوا أَحْرَارًا فِي دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَارْجِعُوا إِلَى أَحْسَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمُ أَعْرَابًا كَمَا تَزْعُمُونَ. قَالَ: فَنَادَاهُ الشِّمِرُ بْنُ ذِي الجَوْشَنِ -لَعَنَهُ اللهُ- : مَاذَا تَقُولُ يَا حُسَيْنُ؟ قَالَ: أَقُولُ أَنَا الَّذِي أُقَاتِلُكُمْ وَتُقَاتِلُونِي، وَالنِّسَاءُ لَيْسَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلٌ، فَامْنَعُوا عُتَاتَكُمْ وَطُغَاتَكُمْ وَجُهَّالَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحُرَمِي مَا دُمْتُ حَيًّا ! فَقَالَ الشِّمِرُ: لَكَ ذَلِكَ يَا بْنَ فَاطِمَةَ، قَالَ : ثُمَّ صَاحَ الشِّمِرُ بِأَصْحَابِهِ وَقَالَ: إِلَيْكُمْ عَنْ حَرِيمِ الرَّجُلِ، وَاقْصُدُوهُ فِي نَفْسِهِ فَلَعَمْرِي إِنَّهُ لَكُفْوٌ كَرِيمٌ.

تدور أحداث النص السابق حين أُفرِدَ الحسين ﷺ في الميدان بعد شهادة أصحابه وأهل بيته ﷺ، والناظر في خُطَب الحسين المتعددة في ذلك اليوم لا يستبعد أن يكون الحسين في مقام إلقاء الحجة على الأعداء ووعظهم لعلَّهم يرجعون عن طغيانهم، فقد كان إلى آخر لحظة من حياته يعظ القوم ويحتج عليهم، لكن النص يكشف أنه قال العبارة أثناء انشغاله بقتال القوم، حين حال الأعداء بينه وبين حرمه، وهذا مقامٌ لا مجال فيه للوعظ وإلقاء الحجة.

ومن الممكن أن يكون أسلوب الأمر هنا بمعنى الخبر المفيد للذم، أي: إذا لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فأنتم أحرار في دنياكم لا تقيدكم القيود عن الاعتداء على الحُرَم أو المقدسات، وهذا قريب من شرح أبي عبيد القاسم بن سلّام لحديث النبي ﷺ: "**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ**

[1] كتاب الفتوح، لأحمد بن أعثم الكوفي، دار الأضواء 1411هـ، (ج5 ، ص ١١٧).

مَا شِئْت"، فقد قال في شرحه: "**وجهه عندي أنّه أراد بقوله: "إذا لم تستحي فاصنع ما شئت" إنما هو: من لم يستحي صَنَعَ ما شاء، على جهة الذّمّ لترك الحياء، ولم يُرِدْ بقوله: "فاصنع ما شئت" أن يأمره بذلك أمرًا**"[2]، لكن هذا الوجه لا يستقيم في مورد مقالة الحسين، لأن الأمر "**كونوا أحرارًا**" تُبِعَ بأمرٍ آخر لا يمكن حمله على الوجه المذكور، وهو قوله "وارجعوا إلى أحسابكم"، فلا يمكن أن نفهم أنه يذم أحسابهم بدليل ورود الشرط بعده في قوله "إن كنتم أعرابًا كما تزعمون"، لأن الشرط يصرف الذهن عن تصور ذم أحسابهم، ويوجِّه إلى أن الحسين يأمرهم بالرجوع إلى أحسابهم الكريمة بدلالة قوله "كما تزعمون"، فالقوم يزعمون لأنفسهم أحسابًا كريمة يفخرون بها، ولا ينسبون أنفسهم لحَسَبٍ لئيم، وإلا ما كان لوجود الشرط من داعٍ.

والذي أراه أن أسلوب الأمر جاء على حقيقته، أي جاء لطلب فعلٍ ما، ولم يخرج لغرضٍ بلاغي بدلالة استفهام الشِّمِر -لعنه الله- عن مقصد الحسين من هذا الأمر، فردّة الفعل هذه تكشف عن أنه فهم أنَّ الأمرَ أمرٌ حقيقيٌّ، لكنه يجهل الفعل الذي يطلبه الحسين، وهذا ما بيَّنه جواب الحسين حين قال: " فَامْنَعُوا عُتَاتَكُمْ وَطُغَاتَكُمْ وَجُهَّالَكُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِحُرَمِي مَا دُمْتُ حَيًّا"، فأمره لأعدائه بأن يكونوا أحرارًا وأن يرجعوا إلى أحسابهم مُفَسَّرٌ بالأمر الحقيقي "فامنعوا"، والأمر الحقيقي لا يَرِدُ في مقام الوعظ والنصح، وهو كاشفٌ عن رغبة الحسين في استجابة فورية لطلبه.

تحليل السياق الثقافي: (ما معنى الحرية عند عرب القرن الأول)؟

لم ترد الحرية ومشتقاتها بالمعنى السياسي في العصر الجاهلي ولا في القرنين الهجريين الأولَين، ويمكن إرجاع ظهورها بهذا المعنى إلى القرنَين الثالث والرابع، حين تُرجِمَت كتب اليونان، وظهرت الحرية في مؤلفات الفارابي بمعناها السياسي الأفلاطوني والأرسطي بوصفها نوعًا سلبيًا من المدن وأنظمة الحكم، ويمكن الوقوف عليها في كتاب "السياسة المدنية" وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة"

[2] : غريب الحديث - أبو عبيد القاسم بن سلام - ط المصرية (ج2/ ص 330)

وكتاب "الجمع بين رأيي الحكيمين"، ففي هذه الكتب أسهب الفارابي في الحديث عن الحرية السياسية، وتحدث عن مساوئها ومحاسنها، فرفد الثقافةَ العربية بدلالاتٍ جديدةٍ لمفردة الحرية لم تكن معهودة من قبل.

هذا فيما يخص الحرية في نطاق فلسفة السياسة، أما الحرية في فلسفة الأخلاق فقد ورد ذكرها الأول حين ترجم إسحاق بن حنين كتاب الأخلاق لأرسطو في نهايات القرن الثالث الهجري، ليأتي الفلاسفة المسلمون من بعده ليرسخوا هذا المصطلح في معالجاتهم لمشكلات فلسفة الأخلاق، وهذا المعنى للحرية لم يكن موجودًا في عصر الحسين ﷺ وإن كان قريبًا نوعًا ما مما سنتوصل إليه.

أما الاستخدامات العربية في القرن الأول وما قبله فهي تنصرف إلى معنيَين أساسيين، في الأوَّل منهما تكون الحريَّة مقابلةً للعبودية بمعناها الاجتماعي في الجاهلية، والاجتماعي الفقهي في الإسلام، ومن المستبعد أن يقصد الحسين ﷺ هذا المعنى في قوله "**كونوا أحرارًا**"، لأن هذا لا يتناسب مع حقيقة أسلوب الأمر التي توصلنا إليها في المعالجة السابقة، فلا معنى لأن يأمر الحسين أعداءه أمرًا حقيقيًّا بأن يتخلصوا من الرقِّ (الحقيقي) وهو يعلم أنهم ليسوا عبيدًا بالمعنى الفقهي الاجتماعي.

وهذا يحيلُنا إلى المعنى الثاني لاستخدام لفظ الحريَّة ومشتقاتها، وهو المعنى المنتمي إلى مجال الأخلاق العربية لا الأخلاق الفلسفية اليونانية (مع تقاربهما في الجوهر)، فالحرية لفظةٌ استخدمها العرب للدلالة على مجموعة من الخصال الأخلاقية الكريمة، كالعزة، والمَنَعَة، وإباء الضيم، والشرف، وكرم الحَسَب، وحماية الضعيف من القوي، وغيرها من الصفات الأخلاقية التي تشكِّل المنظومة الخلقية العربية التي جاء النبي ﷺ ليُتمِّمَها بالإسلام، فهي بهذا المعنى شبيهةٌ بلفظة "المروءة" أو لفظة "الكرم" التي لا تشير إلى فضيلةٍ أخلاقية واحدة بل إلى مجموعة من الفضائل العربية، وهي في استخدام العرب

تتجاوز كونها صفةً للإنسان رجلًا كان أم امرأة، فهم يصفون بها الخيل الكريمة فيقولون "خيلٌ حرة"، والسحابة المليئة بالخير فيقولون "سحابةٌ بِكْرٌ حرة"، والفاكهة الحرة صفة عندهم لخيار الفاكهة الناضجة[3]، والحرية بهذا المعنى قيدٌ لأنها تمنع صاحبَها من التصرُّف بأنانيّة، وتدفعه إلى إيثار الناس على نفسه.

والمتأمِّلُ في قيم العرب الجاهليين يرى أنها قائمةٌ على مبدأ حماية الآخر قريبًا كان أم بعيدًا، ودفع الأذى والسوء والحاجة عنه، وقد يكون هذا راجعًا إلى طبيعة حياة العرب في بواديهم، حيث تفرض الندرةُ وشحُّ الموارد على المرء أن يبخل بما لديه كي يحافظ على حياته، وتفرض الحياة البدوية غير المحكومة بنظامٍ عامٍّ يحفظ الأمن أن يسعى الفردُ لتحصيل قوةٍ تحميه من اعتداءات الآخرين، لذا فإن العرب يُعلون من شأن القيم التي تدفع الفرد للسمو على ظروف الندرة ليؤثِرَ الآخرين على نفسه، والقيم التي تجعله يعلو فوق ظروف انعدام الأمن، فيوسِّع دائرة حمايته متجاوزًا بها أهله وأقرباءه إلى كل من يلجأ إلى كنفه طالبًا الأمن والكرامة، لذا فإن الأخلاق العربية التي تُعبِّر عنها لفظة "الحرية" أخلاقٌ تنبع من الإحساس العميق بالمسؤولية تجاه حياة الآخر وكرامته، مسؤولية تدفع إلى تجاوز الذات، وتجاوز ما تُحَتِّمُه الظروف الطبيعية والاجتماعية.

وأرى أن هذا المعنى الأخلاقي للحرية هو ما قصده الحسين ﷺ في قوله "**كونوا أحرارًا في دنياكم**"، ويُقوِّيه أمرُه بالرجوع إلى الأحساب، فلفظة "الحَسَبِ" تدل على الشرف والكرم الثابتَيْن في الآباء والأجداد، أو الذي يكتسبه الفرد من أفعاله النبيلة الشريفة، فيكون قصد الحسين ﷺ: **يا شيعة آل أبي سفيان، إذا كان الدين لا يمنعكم عن الاعتداء على حرمي، وكنتم لا تؤمنون بالمعاد، أو لا تخافون أن يحاسبكم الله على هتك حرمتي، إذا كانت هذه العوامل لا تردعكم، فارجعوا إلى العامل**

[3] راجع مادة (حرر) في لسان العرب.

الأخلاقي العربي الذي لا يحتاج إلى أن يتأسَّس على الدين، فكونوا أحرارًا أشرافًا كما كان أجدادكم الجاهليون الذين تزعمون الانتماء إليهم وتفخرون بهم.

لقد كان الحسين متيقنًا من عدم قدرة الخطاب الديني على التأثير في أعدائه بعد أن صَدَعَ به في خُطَبِه المتعددة التي سبقت هذه الحادثة، فالقوم كانوا بين متكبِّرٍ عنيدٍ يعرف الحقَّ ولا يُبالي بمخالفته، وآخر يرى الدين في طاعة الأمراء وإن كانوا ظالمين فاسقين، وثالث طغى حبُّه للدنيا وعَظُمَ أملُه بعطاءٍ حقيرٍ من الأمير، فغلب خوفَه من الله ورغبتَه في ثوابه الجزيل، ولم يبقَ في كنانته عليه السلام سوى سهم الأخلاق العربية، ومنظومة القيم القَبَلِيَّة، فطالبهم بأن يكونوا أحرارًا، وأن يقيِّدوا أفعالهم بقيد الحريَّة التي كانت تمنع الجاهليين من ارتكاب ما تأباه منظومة قيمهم، تلك المنظومة المؤسسة على نبذ الأنانية وإيثار الآخرين بكل خير.

ربما تكون هذه القراءة للحرية مُخَيِّبَةً لآمال القارئ الذي انتشى -كما انتشيت من قبل- بالقراءة السياسية لشعار "**كونوا أحرارًا**" ، فشتان بين المفهوم الإنساني الواسع للحرية السياسية وبين ما يبدو من ضيقٍ في مفهوم الحرية القبلية، لكني أرى أنَّ هذا المفهومَ الضيِّقَ للحرية شرطٌ أساسٌ لإقامة مجتمعٍ حرٍّ بالمعنى السياسي، لأنَّه يؤسِّس للفرد الذي لا تتحقَّقُ حريَّتُه إلا حين ينصهر في آلام الآخرين، ويستشعر أحزانهم، ويدافع عن ضعيفهم، ويأبى على نفسه أن يتصف بالظلم لأبناء مجتمعه، أو أن يطيع أمرًا تأباه الطباع الكريمة، ويترفع عن مصالحه الشخصية، إنَّها الحريَّة التي تصلح أن تكون مشتركًا إنسانيًا يتجاوز الفروقات الدينية والعرقية والطبقية، وهي الحريَّة التي لا تحتاج لدولةٍ تحميها بسلطتها القاهرة بل إلى مجتمعٍ يعيشها في وجدانه، عندها ستكون الحرية السياسية تحصيل حاصل، لأن أفرادًا أحرارًا لا يمكن أن يسمحوا بأن ينشأ الاستبداد فيهم، هذه الحريَّة عينها التي سعى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لإكمالها وترسيخها في نفوس المسلمين، لكن القوم بعده لم يكونوا أحرارًا في حربهم لحفيده الحسين عليه السلام.